الياس جرجس الصليبي

هو اول من وقف نفسهُ من الشرقيين فيما نعلم على خدمة الوطن خدمةً صادقة وانفق حياتهُ في انشاء المدارس الابتدائية واسدى بها في لبنان وبقاع العزيز في مبتدإ النهضة العصرية . وُلد في بحوارة مزرعة في بطن وادٍ بناحية الغرب من جبل لبنان ايام كان لبنان بل سورية جميعها ميداناً للحروب والفتن الاهلية والناس في قلق شديد من جرى تضارب اهواء الدُّوَل وتعارض المآرب السياسية ومطامع الغزاة

اتفق في ذلك الزمان ان تخلَّف جنديان مصريان من جنود ابرهيم باشا غازي سورية عن فرقتهما حين كان الجيش عائداً الى القطر المصري فضلاً الطريق وساقهما القدر الى بحواره فعطف جرجس الصليبي عليهما وانزلهما في بيتهِ اياماً واحسن ضيافتهما واكرامهما . وألف سليمان ابنهُ جندياً منهما فعلَّمهُ الجندي الحروف الهجائية وبادئ القراءة والخط . ثم لحق الجنديان بسائر العسكر . اما سليمان فانهُ رغب كل الرغبة في القراءة فكان لا تقع تحت يدهِ ورقة ولا رسالة مهما كانت الا بذل مجهودهُ في قراءتها وما زال كذلك حتى برع في القراءة ثم تعلم منهُ اخوهُ الياس صاحب الترجمة . وكان الاخوان يسعفان ابا هما جرجس الصليبي في كل ما يفتقر فيهِ الى الكتابة لانهُ كان خولياً على سائر المزارعين عند تشرشل بك الانكليزي صاحب بحوارهِ ومالكها

وفي تلك الاثناء خطر لرجل انكليزي من اهل اليسار والسعة ان يخرج الى سورية ليقضي فيها باقي ايامهِ . فركب البحر ونزل في مدينة بيروت سنة ١٨٤٣ ولم يلبث ان صعد الى لبنان وضرب خيامهُ في قرية عاليه فكان فيها غريب الدار واللغة والاخلاق . والعامة من الاهلين يستغربون حولهُ في بلدتهم فكانوا يخرجون الى مضرب خيامهِ زرافاتٍ للتفرج عليهِ . والخاصة يتحدثون في امرهِ ويحسبون لمجيئهِ الف حساب . ثم نما خبرهُ الى تشرشل بك صاحب بحوارهِ فاستقدمهُ اليهِ وابتهج بلقائهِ واشار عليهِ ان ينتقل ويسكن عندهُ ففعل وابتنى لنفسهِ داراً صغيرة وجعل امامها حديقة يختلف اليها ويشتغل فيها اذا سئم المطالعة . وكان سليمان واخوهُ الياس يخدمان حولهُ ويسعفانهِ ببعض حاجاتهِ . وبترددهما عليهِ تمكنا من التقاط بعض الكلمات والجمل في اللغة الانكليزية كانا يكتبانها بحروف عربية ويستخدمانها عند الاقتضاء . فتحرَّك ذلك من اهتمام مستر لودبان بشأنهما وعطفهِ عليهما

وكان من عنايتهِ بهما انهُ شوَّق سليمان وسهَّل لهُ الدخول في مدرسة عين العالية

للمرسلين الاميركان . وكانت لا تزال في حداثة عهدها والطلبة فيها قليلون لاعتهم شبان بلادنا عما هو اهم عندهم بصيانة النفس وتحصيل الرزق . فارتحل سليمان الى عبيه لتحصيل العز وارتفع معهُ على كرور الايام في المدرسة المذهب الانجيلي وكان في عطلة الصيف يدعو اقاربهُ اليهِ ويحاول اقناعهم بصحة مذهبهِ الجديد فلم يظفر الاَّ بالقليل منهم . ولما كانت سنة ١٨٤٩ فتح المرسلون الاميركان مدرسة ابتدائية في بحواره وكان سليمان قد نال الشهادة المؤذنة باتمام دروسهِ فجعلوهُ معلماً فيها ونجحت المدرسة في ايامهِ نجاحاً باهراً وكان يسعف المرسلين في الوعظ نهار الاحد يتناوبونهُ مرةً يقوم هو بهِ ومرةً زاحد منهم يقدم من عبيه لهذه الغاية . اما الخواجه الياس صاحب الترجمة فاتسع نطاق معارفهِ باختلاطهِ مع اخيهِ ومع المستر لوذيان وسرَّ جداً بما وقف عليهِ من المبادئ الدينية التي كانت قبلاً يجتزيءُ بمعرفتها معرفة سطحية وتمرَّس على التكلم بالانكليزية حتى اصبح قادراً ان يعبر عن مرادهِ بها

ولما كانت سنة ١٨٥٢ عزم المستر لوذيان على العودة الى بلادهِ فاستصحب الخواجا الياس معهُ لكي يتفرج على البلاد ويطَّلع على شيءٍ من احوال الانكليز الاجتماعية والدينية . وبعد ان بلغا مدينة المستر لوذيان وابتجت عنها وعكة السفر طاف الانكليزي بصديقهِ الصليبي في المدينة وشاهد بناياتها ومعابدها . وما هي الاَّ جولة او جولتان حتى بلغ الدهش من الصليبي مبلغهُ . ولا غرو في ذلك فان مسافة الفرق بين مزرعة في لبنان وبين مدينة للانكليز لعظيمة جداً . فقد كان كل شيءٍ جديداً عندهُ لم تسمع بهِ أذنهُ ولا ابصرتهُ عينهُ . ومما زاد دهشهُ ونبَّه فكرتهُ الدينية الجديدة ما شاهدهُ من المدوء والسكينة ايام الآحاد وما سمعهُ من الكلام الحي في المعابد . فالناس لا يخرجون نهار الاحد من منازلهم الاَّ للمعابد ثم يعودون ولذلك ترى ازقة المدن وشوارعها خالية خاوية . واهل الدين على جانب عظيم من الورع والتقوى يخرج كلامهم من القلب الى القلب

وذكر الصليبي عند ذلك ابناء وطنهِ وانباءهُ في لبنان وتمنَّى لو ساعدهُ الانكليز بالمال لتنوير اذهانهم بواسطة المدارس . وكاشف صديقهُ المستر لوذيان بأمانيهِ فاستحسن غيرتهُ ومحبتهُ للخير . وصفقا يسمان معاً يقصدان اهل الاحسان ويستدران جودهم ويعقدان الاجتماعات العمومية والمستر لوذيان يعرِّف القوم بالصليبي ويذكر لهم حاجة اهل لبنان الى العلم والتهذيب . وصاحب الترجمة الصليبي يقص عليهم قصتهُ بكلام بسيط وكان لا يحسن التكلم بالانكليزية مضبوطاً . غير ان لهجتهُ كانت صادقة وعملهُ يدل على اخلاصهِ . فتمَّ لهُ بعض النجاح واجتمع لديهِ ثمانون ليرة انكليزية . وفي ايابهما سنة ١٨٥٣ الى لبنان مكثا في بيروت اياماً فاوفى

في خصومها الصليبي حضرات المبشرين الاميركان وقدم لهم المبلغ اعتقاداً منهُ انهم يحسنون انفاقهُ في سبيل المدارس اكثر منهُ لان تدبير المدارس والمعلمين من عواطم الطاعة فأبوا قبول التقدمة وقالوا لهُ تصرف انت واخوتك بالمبلغ ونحن نتعلى لكم عن المدرسة التي في مجواره

ثم صعد الصليبي وصديقهُ الى مجواره فسرَّ الاخ والاصدقاء بعودتهما سالمين . وبعد مشورة اخيهِ سليمان والتروي في الامر قرَّ رأيهُ ان يبني مدرسة فوجهُ تشرشل بك قطعة الارض التي اختارها فبنى بيتاً صغيراً . ولما اوعجهُ الخواجا الياس ومحبتهُ لعمل الخير الاَّ ان يشرك جيرانهُ في القرى القريبة بمال الاحسان ففتح في بعضها مدارس كان ينفق عليها مما بقي في يدهِ . واخوه سليمان كان يعلم في مدرسة بحواره ويزور المدارس الجديدة فيتحن تلاميذها وينشط المعلمين . فكانت هذه المدارس حجر الاساس للرسالة الانكليزية التي انشأها الصليبي في لبنان . وكان الاهلون يثنون عليهِ ثناء عاطراً ويشكرون لهُ اعمالهُ المبرورة وسعيهُ المتواصل في سبيل التعليم والتهذيب . فشحذ ذلك من عزيمتهِ وزيَّن لهُ وجوه الآمال فحدثتهُ نفسهُ بالسفر ثانية الى بلاد الانكليز لكي يتتبع فضل اصحابهِ الذين ملأوا كفيهِ اولاً بمال الاحسان

واجتمع باخيهِ سليمان والمستر لوذيان وتفاوضوا في امر المدارس وتوسيع نطاقها فذكر لهما رأيهُ في السفر الى بلاد الانكليز . غير ان المستر لوذيان كان في ريب من انهُ يصيب نجاحاً هذه المرة ليعد المطلب ووعورة المسلك . وكان ارتياح الناس في القرى المجاورة بطلب المدارس يزيدهُ رغبة في السفر . ثم توكل على الله وركب البحر في اواسط الربيع سنة ١٨٥٤ مزوداً برسائل التوصاة . وحين بلغ مقاطعة كارليل متجهاً القديم زار معارفهُ وقدم اليهم الرسائل فلاقوهُ بالبشر واكرموا مثواهُ ووعدوهُ خيراً . ولما تفقدوا منهُ ومن الرسائل ان سكان لبنان اميُّون يجهلون القراءة والكتابة رغبوا في ان يكون العمل على طريقة راهنة فاشار واحد على الصليبي ان يؤلف جمعية من كبار الرجال والادباء بينهم يكونون امناء على المال الذي يُجمع . فقال لهُ الصليبي احسنت وانت تكون اول رجل في الجمعية . ولم يلبث طويلاً حتى نشرت الجرائد اخبارهُ فذاع امرهُ في بلادهم وكانوا يلاقونهُ بالاعزاز والاكرام ويعقدون لهُ الاجتماعات الخاصة في البيوت والعامة في الكنائس ويبسطون لهُ ايدي الاسخاء بسخاء . وكان الصليبي لا يستلم شيئاً من مال الاحسان الذي يُجمع لهُ الاَّ بعد اثبات كميتهِ في دفتر وتصديق رئيس الاجتماع على ذلك بالتاريخ والامضاء حتى اذا بلغ مبلغاً كبيراً سلمهُ الى امين الصندوق

وحدث في غياب الصليبي عن لبنان أن تشرشل بك صاحب مجوارة باعها فلم يرضَ ابوهُ وسائر بني الصليبي البقاء فيها . فباعوا هم ايضاً حصصهم واملاكهم وهاجروا الى سوق الغرب وابتاعوا في اعلاها اراضي فسيحة عمَّروها وسكنوا فيها . واصبحت سوق الغرب منذ ذلك الحين مركز اعمال الصليبي

ولم يكن سليمان الصليبي اقل نشاطاً من اخيهِ فانهُ طالما استقر في سوق الغرب شرع يعلِّم الاحداث في بيتهِ نهاراً والشبان اهل الاعمال ليلاً والمستر لوذيان يدرس الانكليزية

وفي غضون ذلك وردت بشائر النجاح من الياس الصليبي الى اخيهِ سليمان وصديقهِ المستر لوذيان فانهُ كتب اليهما بما لقيهُ من الحفاوة والاكرام والارتياح لعمل الخير وان جمع المال قد انتظم لديهِ على طريقة راهنة تكفل دوام عمل المدارس في لبنان زماناً طويلاً . فكان السرور يبشائر نجاحهِ عظيماً . ثم ركب سليمان الى عينه ليقف على رأي معلمِ المستر كلهون بشأن المدارس . وكان من ذلك ان جرى في اواخر سنة ١٨٥٥ اجتماع بعض الكبار من اهل الفضل والعلم في دار المستر إسكوط في شملان للنظر في تدبير المدارس وهم المستر كلهون والقنصل الاميركاني في بيروت والمستر اسكوط والمستر لوذيان والمعلم بطرس البستاني والمعلم سليمان الصليبي . وقد اخذوا على انفسهم النظر في شؤون هذه المدارس وفي انفاق المال عليها بواسطة احدهم سليمان الصليبي وعينوا باجماع الرأي ان يكون المستر بلاك التاجر الانكليزي في بيروت اميناً للصندوق

وعاد الياس الصليبي الى لبنان سنة ١٨٥٦ ظافراً كبير الامل راسخ العزم وقدم اليهِ وفود من القرى القريبة يهنئونهُ ويطلبون منهُ بالحاح ان يفتح لهم المدارس لتعليم اولادهم . فاجاب ملتمسهم وزاد في عدد المدارس على التدريج حتى بلغت خمس عشرة مدرسة بعد ان كانت ستًّا . على انهُ كان يجد صعوبة شديدة في تدبير المعلمين لان المتخرجين في مدرسة عينه كانوا لا يزالون قليلين . وطلب الفرج من هذه الشدة فلم يجد باباً اقرب من انشاء مدرسة عالية في سوق الغرب تدرّس الشبان العلوم وتدربهم في فن التدريس ليكونوا معلمين . ولما كانت سنة ١٨٥٩ حاول مراراً ان يقنع بعض الشبان الكبار بان يتعلموا و يستعدوا ثلاث سنوات ثم يخرجوا للتدريس فلم يُفلح واخيراً اغراهم بالدراهم فتعهد ان يعطي كل واحد منهم خمسة غروش كل يوم تدريس تعويضاً عما يخسرونهُ من ترك اعمالهم التي يرتزقون بها . فكانوا يتعلمون نهاراً و يبيتون ليلاً في بيوتهم . وهكذا ابتدأت المدرسة بستة شبان كان سليمان الصليبي وابرهيم المعلوف يدرسانهم العلوم بالعربية والمستر لوذيان يعلمهم مبادئ الانكليزية .

وفي السنة التالية كثرت الفتن والقلاقل في لبنان وكانت الحرب الاهلية فأقفلت المدارس الابتدائية والمدرسة العالية بضعة اشهر الى ان صفا جوُّ السياسة وركدت رياح الفتن . ثم استأنف الخواجا الياس التدريس في المدرسة العالية ودعا اليها معلمي المدارس الابتدائية فقضوا ما بقي من السنة في توسيع معارفهم والتمرن على التعليم . وكانوا فوق ذلك يتناولون نصف معاشهم المرتب لهم ثم عادوا الى مدارسهم في اوائل سنة ١٨٦١

وبقي الخواجا الياس يتردد الى بلاد الانكليز كل سنتين او ثلاث مرة يسافر اليها مجهزاً باخبار اعماله والقصص التي تؤيد منافع المدارس وكان اصدقاؤه يستقبلونه بالاكرام ويمهدون له سبل النجاح

وكان همهُ الاكبر ان يجعل المدرسة العالية على قواعد راسخة فكاتب اصدقاءه في بلاد الانكليز من اعضاء الجمعية وغيرهم مبرهناً لهم وجوب تشييد بناية خاصة للمدرسة يجد فيها المعلمون والطلبة الراحة في الدرس والتدريس . وتعهد ان يقدم الارض اللازمة للبناء مجاناً . وحين تمَّ لهم جمع النفقة اللازمة للبناء كتبوا اليهِ بذلك لكي يشرع بعد المعدات . وبناء على ذلك افرز من ملكهِ قطعة فسيحة في اعلى القرية ولم ينقضِ الحول حتى تم البناء وانتقل اليهِ المعلمون والتلامذة سنة ١٨٦٥ . وكان بعض السياح الانكليز في تطوافهم في بلاد الشام يزورون المدارس ويفحصون التلاميذ فيسرُّون بما يشاهدونهُ من حسن الترتيب وذكاء المتعلمين واجتهاد المعلمين ويكتبون من انفسهم بذلك الى عمدة الجمعية ثم تُنشَر رسائلهم مطبوعة في تقرير المدارس السنوي

وسنة ١٨٦٨ سافر الياس الصليبي الى بلاد الانكليز لامور عائلية . ولمَّا درت جمعية المدارس بقدومهِ ظلبت اليهِ ان يمكث فيها برهةً لكي يطوف على اهل الاحسان وينهض هممهم ويحرك من اريحيتهم لعمل الخير . ففعل وجمع للمدارس ما يتيف على ثمانمائة ليرة فكان اقبال الناس عليهِ لاستماع خطبهِ وبسط ايديهم بالسخاء من الدلائل الناطقة بمكانتهِ عندهم وثقتهم بهِ . وفي سفرتهِ هذه تعرَّف بعقيلة بارفيلد وابنتها وهما من ربات الوجاهة وعظيمات القدر وكان كلامهُ معهما يشف عما في قلبهِ من صادق المسعى والاخلاص في العمل وكانتا في سياحتهما في لبنان قد زارتا مدارسهُ وعرفتا احوالها الجيدة . ولمَّا آنس منهما اهتماماً بشأن المدارس اغتنم هذه الفرصة وطلب منهما ان تسعيا في جمع النفقة اللازمة لبناء مدرسة داخلية للبنات فوعدتاهُ خيراً . ولم ينقضِ الاَّ اليسير من الزمان حتى انجزتا وعدهما وبعثت

عقيلة بارفيلد تبشره بالنجاح . وكان لا يزال في بلاد الانكليز فاسرع اليها يشكر لها حميد مساعاها وجميل معروفها

وسنة ١٨٦٩ عاد الى لبنان وهو يجر اذيال الفوز والنجاح ويداهُ ممتلئتان بالتبرعات والهدايا المدرسية . واستصحب معهُ شابَّين انكليزيين جعلهما في المدرسة العالية يعلمان الانكليزية فيها ويتعلمان العربية . وافرز قطعة ارض من ملكهِ في الطرف الجنوبي من سوق الغرب لبناء مدرسة البنات . ولم يكن يقتصر على الاهتمام بشؤون المدارس وتوفير الوسائل لنجاحها بل كان يلتفت احياناً الى الآلات الزراعية والصناعية فيأتي بها من بلاد الانكليز ويستخدمها في اعمالهِ

وبعد ان عاد الى لبنان هذه المرة اتهمهُ حسادهُ باشياء مريبة كتبوا بها الى اعضاء الجمعية لافسادهم عليهِ فداخلت بعضهم فيهِ الظنون . ولما كان المجمع السنوي للكنيسة الحرة طرح احدهم مسألة الصليبي على بساط البحث فحوَّلها المجمع الى لجنة التبشير . وتقرر عند اعضاء اللجنة هذه ارسال وفد لزيارة مدارس الصليبي والوقوف على احوالها بالنفس وتحقيق ما اتُّهم بهِ رئيسها مما يتعلق بمالية المدارس وادارتها . ووقع انتخابهم على اثنين من كبار رجال الكنيسة المعروفين بالرصانة والامانة والتحقيق احدهما اسكندر دف الذي قضى سابق ايامهِ مبشراً في بلاد الهند والآخر جس لسدن وكان رئيساً لمدرسة اللاهوت في جامعة ابردين

وبلغا بيروت في اواسط نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٠ ومكثا فيها اسبوعاً من الزمان قضياهُ في زيارة مدارس المرسلين الابتدائية والعالية على اختلاف مراجعها وامتحنا التلامذة فيها لكي يتمكنا من مقارنتها بمدارس الصليبي ثم صعدا الى سوق الغرب وفي اليوم التالي شرعا بفحص المدارس التي فيها وزارا المدارس الأخر المنتشرة في الغرب والمتن والبقاع . وقد بالغا في فحصها وتفتيشها فوجداها جميعها في حالة حسنة من الترتيب والنظافة والعناية بالتعليم والتهذيب . ورأيا ان منزلتها لا تحط عن منزلة المدارس الابتدائية للمرسلين في البلاد

ودعا هذا الوفد المعلمين اليهِ الى سوق الغرب ليقف على آرائهم في حاجات المدارس واسباب تحسينها وترقيتها . فقدموا جميعهم في الوقت المعين غير ان الوفد لم يعقد لهم اجتماعاً عمومياً بل اخذ كلاً على حدة وكان يستوضحهُ رأيهُ ويشجعهُ حتى يتكلَّم عن احوال المدارس الادارية والمالية والتعليمية كأنهُ بذلك يفتح لهُ باباً للشكوى اذا كان لهُ ثمت ما يشتكي منهُ . وكان الوفد يعدِّل اقوال المعلمين ويعلق عليها ملاحظاتهِ الخاصة . ولم يكن من يتقدم بشكوى على الصليبي لا من المعلمين ولا من الاهلين

وبعد ان ساح الوفد في الجبل الشرقي وزار دمشق وحاصبيا وبعلبك رجع الى بيروت . وكانت غاية اعماله في هذه البلاد انهُ عقد اجتماعاً عمومياً مع المرسلين الاميركيين فيها ثم ركب البحر منها في ١٥ حزيران (يونيو) من السنة نفسها وعاد الى بلاد الانكليز . وهناك نظَّم من المعلومات والدلائل التي وقف عليها قراراً في ما ثبت لديهِ وكان منهُ على يقين جازم في مسألة الصليبي ومدارسهِ وقد أسقط بهِ عن الصليبي جميع ما اتهمهُ بهِ اهل الظنون والتخيلات فخرج بعد البحث الدقيق بريءَ الساحة نقيَّ الثوب

وفي السنة التالية استقدمتهُ عمدة المدارس اليها الى ادنبرج ليأخذوا رأيهُ في شأن تعيين مساعد لهُ يكون راعياً للكنيسة في سوق الغرب ومديراً للمدرسة العالية فيها . فسافر اليهم ووقف على رغائبهم وتعرف بالرجل الذي توجهت انظارهم اليهِ وهو القس يوحنا راي . فوافقهم على رأيهم فيهِ ولم يخالفهم

فجاء القس يوحنا راي الى سوق الغرب . ولما ابتدأت السنة المدرسية في المدرسة العالية اخذ يدبر شؤونها واستلم زمام المدارس الاخرى وتدبيرها لان اخواجه صليبي كان لا يزال في بلاد الانكليز . وكانت المدارس فوق الثلاثين منتشرة في ناحية الغرب والمتن من لبنان وفي بقاع العزيز . ولما رجع الخواجا الياس الصليبي الى لبنان سنة ١٨٧٣ استلم الرئاسة العامة على المدارس واقرَّ القس يوحنا راي في ادارة المدرسة العالية وجريا في الاعمال معاً جرياً حسناً الى اواخر السنة ثم بعدت شقة الخلاف بينهما وافضى الامر الى استعفاء الصليبي من الرئاسة وتوقفت المدرسة العالية . ثم رحل القس راي الى قرية الشوير في المتن فجعلها مركز اعمال المدارس . اما الخواجه صليبي فانهُ رحل بعياله الى مدينة لندن واستوطن فيها . وفي اواخر ايامهِ عاد الى لبنان يتفقد دورهُ وأملاكهُ فانتقل الى رحمة ربهِ سنة ١٨٩١ وكان لهُ مأتم حافل بكاهُ فيهِ الوجهاء والادباء . ولا يزال يذكر اسمهُ بالوقار واعمالهُ بالشكر والثناء . وقد رزق ولداً واحداً وهو الدكتور كالب الصليبي نزيل بلاد الانكليز ويعد من مشاهير الاطباء والكتبة ويرجع الى رأيهِ في المسائل العمرانية والاجتماعية

جرجس همام